لغز المدينة العائمة



محمود سالم

لغز المدينة العائمة

تأليف
محمود سالم



لغز المدينة العائمة

محمود سالم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: أحمد رحمي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٠١ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

أين الصندوق؟

ركب الأصدقاء مع البارونة «شيليا» القارب البخاري الفخم الذي كان في انتظارها ... وأخذ القارب يشق طريقه وسط شوارع «فينسيا»، المدينة الوحيدة في العالم التي تتكوَّن شوارعها من قنوات مائية ... المدينة التي عرفها العرب باسم «البندقية» ... ويُسمِّيها الإيطاليون «ملكة البحار»؛ حيث ينتقل الناس من مكانٍ إلى آخر بواسطة القوارب البخارية أو «الجندول» ذي المجاديف.

قالت البارونة «شيليا»: هذه أول مرة تزورون فيها «فينسيا» على ما أعتقد؟

ردَّ «تختخ»: إنها أول مرة فعلًا ... بل هي أول مرة نخرج فيها من مصر إلى العالم الخارجي.

شيليا: إن «فينسيا» مدينة ساحرة خاصةً في الصيف ... حيث تحفل المدينة بالسيَّاح من كل مكان، وتُقام المهرجانات، ولحسن حظكم في هذا العام يُقام «بينالي فينسيا»، وهو أكبر معرض دولي للرسم ... ويقع في الطرف الجنوبي للمدينة، حيث يوجد جناح لكل دولة في العالم، تعرض فيه رسومها وتماثيلها.

تختخ: ولكننا لن نبقى طويلًا في «فينسيا»؛ فنحن مرتبطون بالذهاب إلى «ميلانو» لمقابلة عمي هناك.

شيليا: لا بد أن تبقَوا حتى تحضروا مهرجان «رد سنتور»، وهو أكبر مهرجان يُقام في «فينسيا»، وموعده الأحد الثالث من شهر يوليو كل عام ... ولم يبقَ عليه سوى يومَين فقط.

تختخ: وموعدنا مع عمي في ميلانو؟

شيليا: سنتصل به تليفونيًّا، ونُخطره أنكم ستبقون هنا بعض الوقت.

كان بقية الأصدقاء يُتابعون حديث البارونة «شيليا» و«تختخ» وهما يتحدَّثان الإنجليزية، وفهموا بعضًا من الحديث، فالتفت «تختخ» إليهم وأوضح لهم بسرعة اقتراح «شيليا».

تحمَّس الأصدقاء للبقاء ... فقد كان المنظر حولهم رائعًا ... والقارب يمضي عبر «الجراند كانال»، وهو الطريق الرئيسي وسط المدينة، وكانت المنازل القديمة تفتح أبوابها مباشرةً على الماء وتقف أمامها القوارب ... والكباري الصغيرة المنحنية تربط الشاطئ ... وموسيقى المقاهي والكازينوهات تتردَّد ... وأبراج الكنائس والمتاحف والقصور ترتفع في الجو.

قالت «نوسة» مبهورة: إني لم أرَ في حياتي مشهدًا أروع من هذا!

وقال «تختخ»: إنني أتمنَّى أن أبقى هنا شهورًا طويلة.

ثم أضاف «تختخ» موجِّهًا حديثه للبارونة: إن الأصدقاء سعداء جدًّا بوجودهم في «فينسيا»، ويبدو أنهم موافقون على تلبية دعوتك للبقاء بضعة أيام في «فينسيا».

ابتسمت البارونة قائلة: إن هذا يسرني جدًّا؛ فإنني أسكن في قصر كبير وحدي، وسوف تملئون القصر بهجةً وحركة.

وأخذ «تختخ» يتذكَّر كيف التقى بالبارونة بالمصادفة على ظهر الباخرة «سوريا»، وتذكَّر «كلب البحر»، المهرِّب الدولي الخطير الذي دوَّخ رجال الشرطة وحيَّرهم في العالم، ثم وقع في يد المغامرين الخمسة ... ودقَّ قلبه سريعًا عندما تذكَّر تحذير المفتش «باولو» له قائلًا: سوف تنتقم عصابة «كلب البحر» منكم، فكونوا على حذر.

نعم ... يجب أن يكون على حذرٍ تمامًا ... لقد استطاع أن يوقع بـ «كلب البحر» ويُسلِّمه للبوليس الإيطالي أو «الكستورة» كما يُسمُّونه في اللغة الإيطالية ... ولا بد أن لـ «كلب البحر» عصابةً كبيرة ... ولا بد أن هذه العصابة ستُحاول الانتقام منهم، فلْيكن على حذر ... فهو المسئول عن الأصدقاء جميعًا في هذه الرحلة.

اقترب القارب من جسرٍ قديم ضخم، فقالت البارونة «شيليا»: هذا هو جسر «الريالتو» أقدم جسر في «فينسيا»، ويربط بين الضفة اليمنى والضفة اليسرى لـ «الجراند كانال»، وهو كما ترون أكبر شوارع «فينسيا» ... لقد بُني هذا الجسر من ٤٠٠ سنة تقريبًا، وما زال قائمًا كما ترون حتى الآن.

وأخذ الأصدقاء يتأمَّلون الجسر العجيب، كان أقرب إلى المنزل منه إلى الجسر ... فهو مسقوف ... وله ٥ نوافذ على الجانبَين، وعليه آلاف النقوش والورود.

قالت «لوزة»: إنه أغرب جسر شاهدته.

عاطف: إن كل شيء هنا غريب ومثير.

وانحرف القارب من الطريق الرئيسي إلى طريق جانبي صغير ... ودار في الماء دورةً واسعة، ثم وقف أمام مرسًى للقوارب، وقالت «شيليا» مشيرةً إلى قصر كبير: هذا هو قصر «لونجي» حيث أسكن ... إنه قصر قديم تملكه هذه الأسرة العريقة، وقد استأجرته منها منذ سنوات.

وحمل الأصدقاء حقائبهم وصعدوا في المرسى إلى أعتاب القصر التي كانت تصل إلى الماء ... كان القصر محاطًا بحديقة كبيرة، وسمع الأصدقاء نباح كلاب قادمة ... ثم ظهرت ثلاثة كلاب ضخمة، أسرعت تُلقي بنفسها على البارونة العجوز التي بدت سعيدةً بهذا الاستقبال الحماسي للكلاب، برغم أن الكلاب كادت تُسقطها أرضًا.

وقف الأصدقاء مذهولين أمام ضخامة الكلاب ووحشيتها الواضحة، فقالت البارونة: تعالَوا أُعرِّفكم بها. وتردَّد الأصدقاء، ثم تقدَّم «عاطف» قائلًا بسخريته المعهودة: لو كان «زنجر» معنا لسرَّه كثيرًا أن يتعرَّف بها.

قالت «شيليا»: إنها كلاب من نوع «الماستيف» الضخم، وهي أحسن كلاب حراسة في العالم.

وتذكَّر «تختخ» عصابة «كلب البحر»، وأدرك أن هذه الكلاب الثلاثة قد تلعب دورًا هامًّا إذا تعرَّضت لهم العصابة، وهكذا تقدَّم وأخذ يربت على رءوس الكلاب بيده ... وأخذت الكلاب تزوم في وحشية برغم أن البارونة كانت تقوم بتهدئتها ... وشيئًا فشيئًا بدأت الكلاب الثلاثة تهدأ، وصعد الأصدقاء درجات القصر إلى داخله.

كان قصرًا قديمًا يعود تاريخه إلى القرون الوسطى ... أي إن عمره يصل إلى ٥٠٠ سنة أو أكثر ... وقد أُدخلت فيه التعديلات والتحسينات ... فأضيء بالكهرباء ... ودخلته مواسير المياه النقية ... ولكن كل شيء عدا ذلك بقي على حاله، ورفع الأصدقاء رءوسهم إلى فوق يُشاهدون سقفه الذي غطَّته اللوحات الزيتية الفخمة الثمينة ... وفي الصالة الواسعة حيث كانوا يقفون ... كانت التماثيل الضخمة تقف وكأنها صفوف من الفرسان في ميدان قتال ... وقالت البارونة: إنني أُحب هذا القصر جدًّا ... ولعلكم تلاحظون رأس «كلب البحر» المنحوت على الجدران، إنه شعار أسرة «لونجي» التي استأجرت منها القصر.

وما كادت «شيليا» تذكر «كلب البحر» حتى عاد الأصدقاء جميعًا بذاكرتهم إلى الأيام الخمسة الماضية التي قضوها على ظهر السفينة «سوريا» في صراع مع المهرِّب الذي يحمل

هذا الاسم ... «كلب البحر»، وقال «تختخ» في نفسه: هل هناك علاقة بين «كلب البحر» وهذه الأسرة؟ وهل هناك علاقة بين «شيليا» وبين «كلب البحر»؟!

قالت البارونة: ستنزلون في جناح يطل على الماء ... لتستمتعوا بمشاهدة «الجندول» والسيَّاح ومشاهد الليل الجميلة.

وقبل أن يصعد الأصدقاء إلى جناحهم عرَّفتهم البارونة بالخدم الذين يعملون في القصر ... «فيتوريو» كبير الخدم ... و«جينا» ... مديرة القصر ... وثلاثة خدم آخرين.

وصعدت معهم «جينا» إلى فوق حيث اختاروا أماكن مبيتهم، وقالت لهم «جينا» وهي تبتسم كلامًا باللغة الإيطالية لم يفهمه الأصدقاء، ولكن «تختخ» فهم كلمتَين منه هما «مانجاري» و«جاردينو»، فقال للأصدقاء: «مانجاري» يعني طعام، و«جاردينو» يعني حديقة، فهي تقصد أن طعام الغداء سيكون بالحديقة.

نوسة: لقد استفدتَ من وقتك حقًّا ... كنتُ أظن أنك لم تتعلَّم شيئًا.

تختخ: لقد تعلَّمت نحو مائة كلمة في الأيام الخمسة الماضية؛ فإني أحب تعلُّم اللغات.

لوزة: أُريد أن أشرب.

قال «تختخ» لـ «جينا»: أكوا ... بير فافوري.

أحنت «جينا» رأسها دلالة الفهم وانصرفت، فقال «تختخ»: «أكوا» يعني ماء ... «بير فافوري» يعني من فضلك.

صاحت «لوزة» في مرح: أكوا ... أكوا ... بير فافوري ... بير فافوري. سأذكر هذا جيدًا حتى لا أموت من العطش.

أسرع الأصدقاء إلى دورات المياه، فاغتسلوا وأبدلوا ثيابهم، وعادت «جينا» ومعها الماء، وبعد أن شربت «لوزة» سألت «تختخ»: كيف أقول لها شكرًا؟

تختخ: جراتسي.

التفتت «لوزة» إلى «جينا» قائلة: جراتسي.

أحنت «جينا» رأسها وقالت: بريجو.

وانصرفت «جينا» فقالت «نوسة»: إنها سيدة طيبة حقًّا ... وشكلها يوحي بالثقة والاطمئنان.

انتهى الأصدقاء من الاستعداد للنزول، وبعد لحظات صعدت «جينا» تستدعيهم، فقالت لها «لوزة»: مانجاري؟

أحنت «جينا» رأسها قائلة: مانجاري جاردينو.

ونزل الأصدقاء إلى الحديقة ولم تكن البارونة «شيليا» قد نزلت بعد ... فأخذوا يُشاهدون الحديقة الواسعة ... وسبقهم «تختخ» إلى سور الحديقة الذي كان قريبًا من الماء، ووقف يتأمَّل قوارب «الجندول» السوداء وهي تحمل رُكَّابها بين مكانٍ وآخر ...

وفجأةً وجد يدًا تمتد من السور إليه بورقة ... وبحركة ميكانيكية مدَّ يده فأخذها دون أن يُحاول معرفة من يحملها.

وفتح الورقة وكانت مفاجأة عندما قرأ فيها هذه الكلمات: «الصندوق الذي أعطاه لك «كلب البحر»، احتفظ به حتى نطلبه منك.»

«سان ماركو»

وضع «تختخ» الورقة في جيبه دون أن يُحاول اللحاق بمن أعطاها؛ فقد كان متأكِّدًا أنه لن يستطيع إذا حاول الخروج من باب الحديقة والدوران حولها الوصول إليه. وسمع صوت مجاديف تبتعد ... ورجَّح أن يكون في هذا القارب الرجل الذي كان يحمل الرسالة.

دار «تختخ» على عقبَيه متجهًا إلى حيث وُضعت مائدة الغداء ... وكانت البارونة «شيليا» قد وصلت، وجلس الجميع بين الأشجار والورود، وتناولوا غداءً شهيًّا من سمك «فينسيا» الشهير ... كان كل شيء جميلًا، والأصدقاء في غاية المرح إلا «تختخ» ... فقد كان مشغولًا بالورقة التي وضعها في جيبه واستولت على تفكيره؛ فلم تترك مكانًا في رأسه للتفكير في غيرها ...

وأخذ يتذكَّر الصندوق الصغير الذي أعطاه إياه «كلب البحر»، لقد نسيه تمامًا بعد أن أخذه ... لا يذكر أين وضعه! هل يتذكَّر أحدٌ من الأصدقاء؟ سوف يسألهم.

وإذا لم يجِد الصندوق فماذا يفعل؟ إنها مشكلة خطيرة، وقد تحرَّكت العصابة سريعًا ... وعليه من الآن أن يكون حذرًا.

انتهى الغداء فقالت البارونة: سأصعد إلى غرفتي لأرتاح قليلًا، وفي المساء سوف نذهب جميعًا إلى ميدان «سان ماركو» أكبر وأشهر ميادين «فينسيا»، حيث يتجمَّع السيَّاح من جميع أنحاء العالم لمشاهدة كنيسة القديس «ماركو». إن هذا الميدان هو قلب «فينسيا».

قال «تختخ»: سنبقى في الحديقة وسنكون مستعدين في المساء. وصعدت «شيليا» إلى القصر ... وبقي الأصدقاء ... وكان رئيس الخدم «فيتوريو» يقف على مبعدة منهم في انتظار أن يُلبِّي طلباتهم.

قال «تختخ» وعلى وجهه سيماء الجد والخطورة: لقد تحرَّكت عصابة «كلب البحر» أسرع ممَّا توقعتُ بكثير!

نظر إليه الأصدقاء في دهشة، فعاد للحديث قائلًا: لقد وصلتني رسالة من العصابة منذ ساعة تقريبًا … امتدَّت يدٌ بها من خلال السور.

سأل «محب»: وماذا تُريد العصابة منا؟!

تختخ: تُريد الصندوق الذي سلَّمه لنا «كلب البحر»!

محب: وكيف عرفت العصابة أن «كلب البحر» سلَّم لنا هذا الصندوق؟

تختخ: لا بد أنه أبلغهم بطريقةٍ ما، ولعل أحدهم كان على ظهر السفينة دون أن ندري!

عاطف: وأين هذا الصندوق الآن؟

تختخ: لا أدري … لقد نسيته تمامًا في فترة الصراع التي كانت بيننا وبين «كلب البحر».

نوسة: وهل تعتقد أن العصابة ستتركنا في سلامٍ إذا عثرتْ على هذا الصندوق؟

تختخ: وكيف أعرف؟ إن لهذا المهرِّب الخطير عصابةً قوية، ولا بد أنها ستنتقم كما قال لنا المفتش «باولو».

لوزة: إنني أشعر بالخوف؛ فنحن في بلد بعيد … وليس لنا أصدقاء سوى البارونة «شيليا»!

تختخ: للأسف، حتى البارونة لا نستطيع أن نثق بها تمامًا … لقد اكتشفتُ أن شعار أسرة «لونجي» صاحبة القصر هو رأس حيوان «كلب البحر» … وستجدونه محفورًا في كل مكان، حتى على القارب الذي جئنا به … ولعل لـ «كلب البحر» علاقةً بالبارونة … أو القصر … أو أحد الخدم الذين فيه … يجب ألَّا نثق إلا في أنفسنا!

نوسة: في هذه الحالة أقترح أن نُسافر فورًا إلى «ميلانو»! …

تختخ: لقد عرفت العصابة مكاننا … وسواء كنا هنا أو في الطريق إلى «ميلانو» أو في «ميلانو» نفسها … فنحن لسنا في مأمنٍ من العصابة!

محب: ولكن لعل البوليس الإيطالي أخذ الصندوق!

تختخ: لو أن البوليس أخذه لعلمت العصابة، ولم تُطالبنا به. وعلى كل حال … لننتظر ولنرَ … ولا بد أن العصابة ستتصل بنا بطريقةٍ ما، وسوف أُخبرهم أن الصندوق ليس معنا.

وقضى الأصدقاء بعض الوقت في مشاهدة القصر القديم الذي تُحيط به المياه، كما تُحيط بكل بيوت «فينسيا»، وقالت لهم «شيليا» عندما نزلت تصحبهم في الرحلة إلى «سان ماركو»: إن لهذا القصر مداخل وسراديب تحت الماء لا يعرفها أحد.

وعندما اقتربت الساعة من الخامسة ركب الجميع القارب واتجه بهم إلى ميدان «سان ماركو».

قالت «لوزة» وهم يقفون على سلالم الميدان الكبيرة: هل يملك كل السكَّان قوارب؟

قالت «شيليا»: لا ... إن هناك «أوتوبيسات» لها محطات في كل مكان؛ مثل «الأوتوبيسات» في المدن الأخرى ... الفارق أن «الأوتوبيسات» هنا زوارق كبيرة، وأن محطاتها موانئ صغيرة ... ولها تذاكر بين مسافة وأخرى كالمعتاد.

وصعد الجميع السلالم إلى الميدان الكبير ... الذي كان مزدحمًا بالألوف من الزوَّار، تُحيط به المباني القديمة من ثلاث جهات، وفي صدره كنيسة «سان ماركو» الشهيرة وبرجها المرتفع. وكان اللون الأحمر يغلب على المكان كله، وأُلوف من الحمَام تطير وتنزل على الأرض، حيث تتناول الطعام من أيدي الناس دون خوف ... فهناك قانون يمنع صيدها ... وكان باعة الصور والمأكولات والمثلَّجات يقفون بجوار الجدران ... والرسَّامون يجلسون على مقاعدهم الواطئة يرسمون الآثار أو يرسمون السيَّاح مقابل نقود قليلة ... وكانت هناك فرقة من الموسيقى تعزف ... وبعض الناس يرقصون، وقالت «نوسة» للأصدقاء وهي مبهورة: إنه منظر لا يُنسى! ... شيء لا يُصدِّقه العقل!

وترجم «تختخ» كلماتها إلى «شيليا» التي قالت: إنه يصبح أجمل ليلًا عندما تُضاء الأنوار ويرقص الجميع على أنغام الموسيقى.

وظلَّ الأصدقاء يستمتعون بما حولهم، وفجأةً شاهد «تختخ» وجهًا يعرفه ... إنه وجه «ستافرو»! ... الرجل المشلول الذي كان معهم على السفينة ونزل في «بيريه» ... ثم تبعه «تختخ» إلى مخزن الآثار في «أثينا».

التقت عينا «تختخ» بعينَي «ستافرو»، وكان مدهشًا أن «ستافرو» ابتسم له ... كانت ابتسامةً خاطفة، اختفى على أثرها «ستافرو» في الزحام دون أن يُلاحظه بقية الأصدقاء.

مال «تختخ» على «محب» قائلًا: هل تذكر الرجل المشلول الذي كان على ظهر السفينة وطاردتُه في «أثينا»؟

محب: نعم ... أظن اسمه كان «ستافرو».

تختخ: تمامًا ... إنه هو. لقد تبادلنا النظرات، ثم اختفى في الزحام.

محب: إنها ليست مصادفةً طبعًا!

تختخ: طبعًا ليست صدفة ... إنه يتبعنا!

محب: ولعل له صلةً بالرسالة التي وصلتك في حديقة القصر.

تختخ: أعتقد هذا.

واستمرَّ الأصدقاء في السير حتى قالت «شيليا»: تعبتُ من المشي وسأجلس على مقهى «فلوريان» ... وفي إمكانكم أن تستمروا في التجوُّل على أن تعودوا بعد ساعة مثلًا.

قالت «لوزة»: لقد تعبتُ أنا أيضًا وسأجلس معك.

نوسة: وأنا أيضًا.

أمَّا «تختخ» و«محب» ... و«عاطف» ... فقد قرَّروا الاستمرار في التجوُّل إلى أن يهبط الظلام، واتجهوا إلى قلب الميدان، ووقفوا بجوار أحد الفنَّانين الذي كان يرسم صورةً لأحد السيَّاح ... كان يرسم بسرعة، وشيئًا فشيئًا كانت ملامح الصورة تتضح ... وقد وقف عددٌ كبير من الناس يُشاهدون ... وبينما «تختخ» مستمتع وقد وضع يدَيه خلفه، أحسَّ بشيء يُدَس في يده ... كانت ورقة ... وعندما الْتفت ليرى صاحبها لم يجد إلا الوجوه التي تتطلَّع إلى الرسَّام في انتباه.

أدرك «تختخ» فورًا أنها رسالة أخرى من العصابة ... وأحسَّ بقلبه يدق سريعًا. إن العصابة لن تتركهم دقيقةً واحدة ... وانفرد بنفسه وفتح الورقة ... وكانت مكتوبةً باللغة العربية كالرسالة الأولى، ولكن بخط مختلف، وكانت بها هذه الكلمات: «سأنتظرك غدًا في «سان ماركو» ... برج الأجراس، الساعة التاسعة صباحًا ... من الأفضل لكم عدم إبلاغ البوليس.»

وطوى «تختخ» الرسالة ووضعها في جيبه، ثم انضمَّ إلى «محب» و«عاطف» وأكملوا جولتهم، و«تختخ» مستغرق في التفكير، ثم انضموا إلى البارونة و«نوسة» و«لوزة» في مقهى «فلوريان»، وجلسوا يتناولون عصير الأناناس المثلَّج ويتفرَّجون على القادمين والرائحين.

قالت البارونة «شيليا» بالإنجليزية موجِّهةً كلامها إلى «تختخ» كالمعتاد: أقترح أن نتناول العشاء في أحد مطاعم المدينة، ثم نعود إلى القصر.

واستطاع الأصدقاء أن يفهموا ما تقصده البارونة، كما قال لهم «تختخ» أيضًا اقتراحها.

وافق الأصدقاء على الاقتراح، فدفعت البارونة الحساب، ثم وقفت ومشَوا جميعًا عبر الميدان الكبير إلى موقف القارب ... وكان الظلام قد هبط وأُضيئت الأنوار في كل مكان، ودارت حلقات الرقص في الميدان ... ووصلوا إلى القارب ونزلوا. قالت البارونة لقائده: هيا إلى قناة «جيوديكا»، سنتعشَّى في مطعم «سان سبستيانو».

ثم وجَّهت حديثها إلى «تختخ» قائلة: إن قناة «جيوديكا» تفصل بين «فينسيا» وجزيرة «جيوديكا»، والهواء هناك طلق وجميل، وسوف تستمتعون به.

ودار القارب أمام ميدان «سان ماركو»، ثم أخذ طريقه إلى قناة «جيوديكا» الواسعة ... وكانت الأمواج مرتفعةً قليلًا، ولكن الهواء كان ناعمًا، واستمتع الأصدقاء برؤية «فينسيا» كلها مضاءةً بالليل ... وأصداء الموسيقى تتردَّد حول الشواطئ ... والناس يستمتعون بحياتهم.

أخذ القارب يشق المياه مسرعًا ... وجلس الجميع صامتين يتأمَّلون ما حولهم، على حين كان «تختخ» يُفكِّر في الرسالتَين ... الرسالة التي يطلب كاتبها الاحتفاظ بالصندوق ... والرسالة التي يطلب صاحبها مقابلته في برج الأجراس في «سان ماركو» ... لماذا كُتبت الرسالتان بخطَّين مختلفَين؟ وكيف سيتصرَّف؟! وقفزت إلى ذهنه كلمات «كلب البحر» وهو يُحاول أن يُوضِّح له العنوان الذي سيذهب إليه بالصندوق ... إنه يتذكَّر كلمة «الريالتو» ... نعم «الريالتو» ... هل كان «كلب البحر» يقصد كوبري «الريالتو» القديم؟ لا شك أنه يقصده ... وأخذ «تختخ» ... يقدح ذهنه محاولًا تذكُّر بقية العنوان، ولكن عبثًا حاول ... ولكن ... ولكن ... «محب» كان معه ... وقد يتذكَّر بقية العنوان ... فلْيسأله عندما يعودون إلى القصر.

ووصل الزورق إلى المطعم الكبير، وصعدوا جميعًا لتناول العشاء.

برج الأجراس

بعد أن قضى الأصدقاء مع البارونة «شيليا» وقتًا جميلًا، وتمتَّعوا بعشاءٍ فاخرٍ في فندق «سان سبستيانو»، قرَّروا العودة إلى القصر ... فقد كانوا جميعًا في حاجةٍ إلى الراحة. وعندما اقتربوا من «الجراند كانال» — وهي القناة الكبرى التي تشق «فينسيا» من وسطها — وجدوا المدينة ما تزال ساهرة ... والموسيقى ترتفع من كل مكان ... ولكنهم لم يكونوا على استعدادٍ للمشاركة في السهرة ... لقد كانوا حقًّا في حاجةٍ إلى الراحة.

وانحرفوا يمينًا بعد ميدان «سان ماركو» بحوالي ثماني محطات «أوتوبيس»، ثم انحرفوا يمينًا مرةً أخرى فوجدوا أنفسهم أمام القصر، وكانت الكلاب «الماستيف» الضخمة تجري في الحديقة تحرس القصر، فأحسَّ «تختخ» بالاطمئنان، ومال على «محب» قائلًا: في حراسة هذه الكلاب الشرسة يمكن أن نقضي الليلة في سلام، ولكنني سوف أخرج قبلكم؛ فعندي موعد مع أحد أعضاء العصابة في برج الأجراس في «سان ماركو» في التاسعة صباحًا ... فإذا لم أعد بعد ذلك بساعتَين ... أو إذا لم ألتقِ بكم في ميدان «سان ماركو»، فعليك بإخطار البوليس الإيطالي واسمه «الكستورة» ... وعندك كل المعلومات.

محب: ولماذا لا نُخطر البوليس من الآن يا «تختخ»؟

تختخ: لقد حذَّرَتني العصابة من الاتصال بالبوليس ... والعصابات هنا قوية ويمكن أن تنتقم منا ... وعندي أملٌ أن أُقنعهم أن الصندوق الذي سلَّمه لنا «كلب البحر» ليس معنا ... ولا نعرف مصيره؛ فقد يتركوننا في سلام.

وبعد أن تبادل الأصدقاء تحية المساء، ذهب كلٌّ منهم إلى غرفته للنوم، وكانت «لوزة» ... و«نوسة» تُقيمان معًا، و«عاطف» و«محب» ... معًا ... أمَّا «تختخ» فكان ينزل في غرفةٍ وحده.

عندما دخل «تختخ» غرفته وأضاء النور، أخذ يبحث في كل ركن منها؛ فقد كان يخشى أن يكون أحد أفراد العصابة مختبئًا فيها، أو يكونوا تركوا له رسالةً في غيبته.

كانت غرفةً واسعةً مرتفعة السقف — كما هي العادة في القصور القديمة — والفراش ضخم وقديم ... وكان للغرفة نافذةٌ واسعة تُطل على القناة الفرعية التي يقع عليها القصر. ولاحظ «تختخ» لأول مرة وهو ينظر من النافذة أن القصر يتصل عند طرفه البعيد بقصرٍ آخر بواسطة جسرٍ مُعلَّق ... وأحسَّ بالضيق؛ فلو أن شخصًا أراد دخول القصر لاستطاع دخوله عن طريق هذا الجسر دون أن تُحس به الكلاب.

وأخذ «تختخ» ينظر إلى المياه السوداء تحته، واستطاع بعد أن أدار رأسه أن يرى القناة الرئيسية حيث كانت قوارب الجندول الرشيقة السوداء بمجاديفها الطويلة تحمل السيَّاح، وترتفع منها الموسيقى تحت ضوء القمر المكتمل ... كان مشهدًا رائعًا وشاعريًّا ... وقرَّر «تختخ» أن يستأجر مع الأصدقاء جندولًا في اليوم التالي إذا استطاع أن يتخلَّص من العصابة.

خلع «تختخ» ثيابه واستلقى على فراشه محاولًا النوم، ولكن برغم تعبه الشديد لم يستطِع أن ينام ... كان يُحاول تذكُّر ماذا جرى للصندوق الصغير الذي أحضره «كلب البحر» له ... لقد سلَّمه له على ظهر السفينة في الليلة الأخيرة، ثم دار الصراع بينه وبينهم حتى تغلَّبوا عليه، ونسوا أمر الصندوق تمامًا ... لقد كانت عليه ورقة ملصق عليها العنوان، فهل عثر عليه أحد الركَّاب أو أحد البحَّارة، وكان أمينًا فسلَّمه إلى العنوان الذي كان مكتوبًا عليه؟ ... أو بقي في السفينة حيث لا يعلم أحدٌ أين ذهب؟

لقد نسي أن يسأل «محب» عن العنوان الذي حاول «كلب البحر» أن يجعله يحفظه ... إنه يذكر منه فقط كلمة «الريالتو»، وهو لا شك الجسر القديم على «الجراند كانال» الذي شاهدوه هذا الصباح ... ومضى الوقت وهو يسمع بين آونةٍ وأخرى صوت الكلاب وهي تنبح، وصوت الجندول وهو يمر، والموسيقى والسيَّاح ... ولا يدري «تختخ» كم من الوقت مضى وهو يقظ، ولكنه في النهاية استسلم للنوم وهو يحلم بالموعد الذي سيذهب إليه غدًا صباحًا في برج الأجراس.

استيقظ «تختخ» في صباح اليوم التالي مبكِّرًا برغم نومته المتأخِّرة، ونظر في الساعة وكانت السابعة، وسرعان ما لبس ثيابه، ثم غادر القصر بعد أن سأل عن المحطة التي سيركب منها، وبالمصادفة الحسنة كانت المحطة رقم «٧» وهي محطة «الريالتو» فأسرع إليها ... ووجد الجسر العتيق، وتذكَّر أن «كلب البحر» قال له على اسم محل لبيع أدوات

الصيد بجوار الجسر، ونظر حوله، وسرعان ما وجد المحل وتذكَّر الاسم «جراتسي»، ومعناها بالإيطالية «شكرًا».

هذا هو العنوان ... كلمة «جراتسي» بجوار جسر «الريالتو»، بقي أن يتذكَّر اسم الشخص الذي كان سيذهب إليه ... إنه اسم إيطالي مشهور ... ولكنه لا يستطيع تذكُّره الآن ... ولم يُضيِّع وقتًا طويلًا ... فقد كان عليه أن يلحق بموعده ليرى ماذا تُريد العصابة من هذا الموعد.

ووقف في صفِّ المنتظرين على المحطة ... وكانت المحطة القائمة عبارةً عن صندوق ضخمٍ عليه كشك بيع التذاكر، وهناك سلسلتان من الحديد للاستناد عليهما عند اهتزاز المحطة وللمحافظة على النظام. وأخذ يتذكَّر كلمة تذكرة بالإيطالية حتى لا ينسى، وعندما جاء الدور عليه قال: البليتو ... «سان ماركو» ... ومعناها تذكرة إلى «سان ماركو» ... وأخذ التذكرة، وبعد لحظات وصل القارب البخاري فقفز إليه، وانطلق القارب يحمل الركَّاب ... واختار مكانًا بجوار النافذة، وأخذ يستمتع بالصباح الجميل في «فينسيا»، وأخذ يقول لنفسه سأحضر يومًا إلى «فينسيا» دون مغامرة ... إن هذه المدينة العائمة ليست للمغامرات، ولكن للراحة.

أخذ القارب يقف في المحطات ... حتى وصل إلى «سان ماركو»، فصعد «تختخ» إلى المحطة العائمة، ثم أخذ طريقه إلى الميدان ... واستخدم الكلمات الإيطالية القليلة التي يحفظها حتى استطاع أن يصل إلى برج الأجراس المرتفع، وتجاوز المدخل المظلم ووقف قليلًا ... كان هناك مصعد بطيء يحمل الذين يرغبون في الصعود إلى فوق للمشاهدة، ولم يكن هناك أحدٌ في هذا الصباح الباكر في المدينة التي اعتادت أن تسهر ... وأدرك «تختخ» لماذا اختارت العصابة هذا الوقت المبكِّر ... في هذا المكان المظلم ... وتوتَّرت أعصابه وهو يركب المصعد وحيدًا إلى فوق ... ولم يكن الدليل الذي يصحب السيَّاح في هذا المكان قد وصل بعد ... إن العصابة رتَّبت الموعد ترتيبًا جيدًا!

وتركه عامل المصعد وحيدًا، ثم نزل ... كانت الأجراس تتوسَّط البرج، وكان الضوء القليل الذي يُضيء المكان يأتي من النوافذ الأربعة العتيقة ... وبجوار الجدران كانت تمتد شرفات من الطوب يقف عليها الزائرون، واختار «تختخ» مكانًا قرب إحدى النوافذ ووقف ... وبعد لحظات نظر في ساعته، كانت التاسعة تمامًا ... وسمع صوت المصعد الهادئ يأتي من جوف البرج، فأدرك أن عضو العصابة قد وصل.

ركَّز «تختخ» عينَيه على باب المصعد وهو يُفتح … وعندما فُتح الباب أصابته الدهشة … كان القادم هو «ستافرو»! … وتظاهر «ستافرو» أنه لم يعرف «تختخ»، وانتظر حتى أغلق المصعد بابه وهبط … ثم تقدَّم من «تختخ» مبتسمًا وكأنه صديق عزيز.

وكانت المفاجأة الثانية أن قال «ستافرو» بلغةٍ عربيةٍ أقرب إلى لغة أهل الإسكندرية: صباح الخير أيها المغامر!

صمت «تختخ» لحظاتٍ لوَقْع المفاجأة، ثم رد: صباح الخير.

ستافرو: إنك مندهش طبعًا لأنني أتحدَّث العربية.

تختخ: فعلًا!

ستافرو: إن من شروط عصابة «كلب البحر» ألَّا ينضم إليها إلا من يعرف عدة لغاتٍ من بينها العربية … ولا تنسَ أننا نعمل في البحر المتوسِّط ونذهب إلى بلادكم كثيرًا، وأنا شخصيًّا قضيت فترةً من حياتي في الإسكندرية.

تختخ: مدهش جدًّا!

ستافرو: هناك أشياء كثيرة مدهشة في انتظارك … هل وصلتك رسالتي؟

تختخ: وصلتني رسالتاك.

ستافرو: رسالتاي؟! مدهش! … إنني لم أُرسل لك سوى رسالة واحدة!

تختخ: وصلتني رسالة في القصر بمجرَّد وصولنا إلى هناك، ثم وصلتني رسالة في ميدان «سان ماركو»، وقد لاحظت أن خط الرسالتَين مختلف أحدهما عن الآخر.

ستافرو: وماذا كان في الرسالة الأولى؟

تختخ: لقد طلبوا مني أن أحتفظ بالصندوق الذي سلَّمه لي «كلب البحر».

ستافرو: وهل الصندوق عندك؟

تختخ: أبدًا.

ظهرت بوادر الغضب على وجه «ستافرو» فجأةً وقال: أنصحك أن تقول الحق. إن من السهل القضاء عليكم جميعًا، ولن يحميك البوليس منا.

تختخ: إنني أقول الحق … كل الحق … ولا شيء غير الحق.

ستافرو: أين ذهب الصندوق إذن؟!

تختخ: لا أدري، لقد نسيناه في أثناء المعركة بيننا على ظهر السفينة مع «كلب البحر» … نسيناه ولا نعرف عنه شيئًا!

ستافرو: إنني لا أُصدِّقك، ولعلك سلَّمته إلى «ماريو».

وتذكَّر «تختخ» فجأةً هذا الاسم ... إنه اسم الشخص الذي طلب منه «كلب البحر» أن يُسلِّمه الصندوق في محل «جراتسي» عند كوبري «الريالتو»!

تختخ: إنني لم أُسلِّمه إلى «ماريو» ... ولا غيره، وكيف أُسلِّم شيئًا لا أملكه وليس معي على الإطلاق؟!

ستافرو: إن «ماريو» هو الذي أرسل لك الرسالة الأولى.

تختخ: ولم تكن تعلم؟!

ستافرو: أبدًا!

تختخ: شيء مدهش ألَّا يعلم أفراد العصابة بتعليمات الزعيم!

ستافرو: إذا أخبرتني أين الصندوق الآن، سوف لا أتعرَّض لك بعد ذلك ... فلا بد أن أحصل على الصندوق ... وما هو عنوان «ماريو»؟

تختخ: إنني لا أعرف أين «ماريو».

ستافرو: ألم يقل لك «كلب البحر» على مكانه؟ ألم يكتبه لك؟

أدرك «تختخ» أن معه ورقةً رابحةً هي عنوان «ماريو»؛ فإن «ستافرو» لا يعرفه، فقال: لقد قاله لي ولكني نسيته، وكان العنوان موجودًا على الصندوق ولكنه فُقد!

ستافرو: حاوِل أن تتذكَّره.

تختخ: سأحاول ... ولكن كيف لا تعرف أنت مكانه؟

ستافرو: لقد كان «كلب البحر» يُخفي عن عصابته أسراره ... بل إن بعضنا لا يعرف الآخر ... وبعد القبض عليه ظن «ماريو» أن الصندوق معي ... وظننتُ أن الصندوق معه، فاختلفنا اختلافًا شديدًا، وانقسمت العصابة على نفسها ... بعض أفرادها انضمَّ لي، وبعضها انضمَّ إلى «ماريو»، وكل مجموعة تُحاول الحصول على الصندوق ... وأنت وحدك الذي يعلم مكانه.

تختخ: إنني لا أعرف شيئًا.

ستافرو: سأمنحك فرصةً حتى الغد لتتذكَّر مكان الصندوق، وإلا فسوف أنتقم منك ... فإذا قلتَ لي مكانه حميتك من مجموعة «ماريو» ... هذ آخر كلام لي معك.

وطلب «ستافرو» المصعد ونزل ... وبعد دقائق كان «تختخ» ينزل هو الآخر وقد تضاربت في رأسه الخواطر والأفكار.

بين نارَين

عندما نزل «تختخ» من برج الأجراس لم يكن ميدان «سان ماركو» قد ازدحم بعد؛ فلم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف، وهكذا استطاع العثور على الأصدقاء بسرعة حيث كانوا يجلسون على مقهى «فلوريان»، ولم تكن البارونة معهم؛ فقد ذهبت في زيارةٍ عند بعض الأصدقاء.

انضمَّ «تختخ» للأصدقاء الذين لاحظوا فورًا أنه متغيِّر الوجه، فقالت «لوزة»: يبدو أن خلفك أخبارًا غير سارَّة.

ردَّ «تختخ» وهو يتنهَّد: بين نارَين ... نار «ستافرو» وعصابته، ونار «ماريو» وعصابته.

نوسة: ما معنى هذا؟

تختخ: عندما قُبض على «كلب البحر» انقسمت عصابته الكبيرة، فانضم بعض الأفراد إلى «ستافرو»، ذلك المشلول الذي التقينا به على ظهر السفينة، والذي طاردته في أثينا، وبين «ماريو» الذي كنت سأُسلِّمه الصندوق على حسب تعليمات «كلب البحر».

عاطف: وما دخلنا نحن في صراع العصابتَين؟!

تختخ: إن كل عصابة منهما تُريد الصندوق الذي سلَّمه لي «كلب البحر»؛ فقد وصلتني رسالة من «ماريو» أولًا يطلب مني الصندوق، ثم قابلت «ستافرو» وطلبه مني ... وكلٌّ منهما يظن أنني سأُعطي الصندوق للآخر!

لوزة: وأين الصندوق؟

تختخ: هذا هو السؤال الصعب ... فإنني كنت قد نسيت الصندوق تمامًا عندما اشتبكنا مع «كلب البحر» على ظهر السفينة، نسيته هناك ... ولا أدري أين ذهب، ويبدو أن بالصندوق كميةً غاليةً من المهرَّبات ... وكلٌّ منهما يُريد الحصول عليها.

محب: إن الصندوق إمَّا أن أحد بحارة السفينة عثر عليه، أو عثر عليه أحد الركَّاب … وما دام العنوان مكتوبًا عليه؛ فلا بد أنه سلَّمه إلى العنوان.

تختخ: لقد تذكرتُ العنوان، وأنت يا «محب» كنت معي عندما حاول «كلب البحر» أن يجعلني أحفظه، فهل كان محل «جراتسي» بجوار جسر «الريالتو» … واسم من يتسلَّم الصندوق «ماريو»؟

محب: تمامًا … هذا ما أتذكَّره بالضبط.

عاطف: ولكن هذا العنوان لم يعُد يُهمُّنا في شيء … فالصندوق ليس معنا.

تختخ: فعلًا … ولكن يبقى أننا نعرف مكان عصابة «ماريو» … وأن نعرف شيئًا خير من ألَّا نعرف شيئًا على الإطلاق … ونستطيع أن نُبلِّغ رجال البوليس الإيطالي — وبالإيطالية «الكستورة» — يمكن أن نُبلِّغهم بمكان عصابة «ماريو» إذا احتاج الأمر.

نوسة: ولكن لن يجدوا شيئًا هناك.

تختخ: معكِ حق، ولكن يمكن مراقبة المكان، وعن طريق المراقبة يمكن الوصول إلى العصابة.

محب: وحتى إذا استطعنا ذلك، فماذا نقول لرجال «الكستورة»؟

وفي هذه اللحظة وصلت البارونة «شيليا» وصاحت بالأولاد: سنشترك غدًا في المهرجان الكبير الذي يُقام كل عام ونُسمِّيه «الرد سنتور»، وهو مهرجان يشترك فيه جميع سكان «فينسيا». أمَّا الآن فنحن مدعوون إلى شاطئ «الليدو» حيث نقضي طول اليوم.

صاحت «لوزة» في ابتهاجٍ عظيم وقد نسيت كل شيء: … ولكن ليس معنا ملابس بحر!

البارونة: ستجدون هناك كل ما تحتاجون إليه من ملابس وألعاب … هيا بنا.

وتحرَّك الجميع إلى القارب السريع الذي كان يقف في انتظارهم، وسرعان ما انزلق بهم فوق المياه في طريقه إلى شاطئ «الليدو» الشهير.

كان الشاطئ بعيدًا إلى حدٍّ ما … فظل القارب يشق المياه مسرعًا نحو ساعة في البحر الواسع حتى وصل إلى شاطئ «الليدو»، ونزل الأصدقاء إلى الرمال عند الكازينو الكبير، حيث كان في انتظارهم بعض أصدقاء البارونة، وسرعان ما اندمجوا معًا … ووجدوا كل ما يحتاجون إليه من ملابس وأدوات لعبٍ للبحر … وقوارب مطاط … وانتهز «تختخ» الفرصة وأخذ أحدَ القوارب المطاطية وأخذ يُجدِّف مبتعدًا عن الشاطئ، حتى وجد نفسه بعيدًا عن الأصدقاء جميعًا، فاستلقى على ظهره فوق القارب الصغير وأخذ يستمتع بالوحدة والسماء الزرقاء … ومضى بعض الوقت، ثم أحس «تختخ» بالقارب يهتز بشدة، فجلس مسرعًا وشاهد وجهًا بجوار القارب وعليه ملابس الغوص، ورأى يدَي الغواص تهز القارب بشدة.

صاح «تختخ»: ماذا تفعل؟!

لم يكن واضحًا من الوجه سوى العينَين خلف زجاج قناع الغوص الأسود، ثم مدَّ الرجل يده ونزع القناع وقال بلغة عربية: أنا «ماريو».

وأخذ كلٌّ منهما يُحدِّق في الآخر ... ثم أضاف «ماريو»: لقد أرسلتُ لك خطابًا أمس عن الصندوق ... إنني أُريد الصندوق؛ فقد كان مرسلًا لي.

ردَّ «تختخ»: إنني لا أعرف أين ذهب هذا الصندوق، لقد نسيت أمره تمامًا.

ضاقت عينا «ماريو» وأرسل إلى «تختخ» نظرةً متوعدةً وقال: إنك بعيد الآن عن الشاطئ ... وأستطيع أن أُغرقك.

نظر «تختخ» فوجد نفسه بعيدًا فعلًا ... حتى لو صاح يطلب النجدة لما سمعه أحد. وكان في إمكان «ماريو» — لو أراد — أن يُغرقه فعلًا دون أن يتمكَّن أحدٌ من إنقاذه. وأدرك «تختخ» أن «ماريو» لا يُصدِّق أن الصندوق ليس معه ... ولم تكن هناك فائدة من الحوار معه.

أخذ «ماريو» يهز القارب بشدة وكأنه يُنذر «تختخ»، ثم قال: إننا نُراقبك طول الوقت، وقد شاهدناك عندما ذهبتَ إلى برج الأجراس هذا الصباح وقابلت «ستافرو»، وأؤكد لك أنك إذا أعطيتَ الصندوق لـ «ستافرو» فسوف ننتقم منك ... وليس أنت وحدك، ولكن أصدقاءك جميعًا.

وأعاد «ماريو» وضع القناع على وجهه، ثم غاص في البحر وابتلعته المياه الزرقاء.

أدار «تختخ» القارب الصغير وأخذ يُجدِّف على مهل في طريقه إلى الشاطئ. كانت الخواطر تكاد تُمزِّق رأسه وهو يُفكِّر فيما يجب أن يفعله ... لقد وقع في عشرات المآزق ... وخاض أكثرَ من صراع ... واشترك مع الأصدقاء في حل عشرات الألغاز، ولكن هذا الموقف لم يحدث من قبل ... إنهم بين نارَين؛ نار عصابة «ماريو»، ونار عصابة «ستافرو» ... وهذا الصندوق ذهب لا يدري أين ... وحتى لو كان معه ... هل كان من الممكن أن يُسلِّمه لهم؟! إنه محشو بالمخدرات، فكيف يشترك في التهريب؟! وأخذ القارب يقترب من الشاطئ، وبدأت خواطر «تختخ» تهدأ تدريجيًّا. إن أمامه ثلاث خطط سيعرضها على الأصدقاء ...

الأولى: أن يركبوا أول طائرة أو سفينة ويعودوا إلى أرض الوطن ... الثانية: أن يطلب حماية البوليس الإيطالي حتى يصل إلى عمه في «ميلانو» ... الثالثة: أن يقبل التحدي ويخوض صراعًا مع العصابتَين.

وعندما نزل إلى الشاطئ وجد الأصدقاء الأربعة قد انهمكوا تمامًا في اللعب مع بقية المجموعة ... فصعد إلى شرفة الكازينو وطلب مشروبًا باردًا، ثم جلس يُفكِّر وهو ينظر

إلى البحر بعيدًا ... كان نداء المغامرة يستدعيه، ولو كان وحيدًا لما تردَّد لحظةً واحدةً في خوض المعركة ... ولكن كان يشغل باله الأصدقاء، خاصةً «لوزة» الصغيرة. إن عصابة «ستافرو» أو عصابة «ماريو» لن تتردَّد في عمل أي شيء لتحصل على الصندوق، ولكن أين الصندوق؟! هذا هو اللغز.

وشيئًا فشيئًا بدأت فكرة تغزو رأسه ... فكرة ممتازة تحتاج فقط إلى قدرٍ كبيرٍ من المهارة للتنفيذ ... إن العصابتَين تُفكِّران أن الصندوق معه، فلماذا لا يكون الصندوق معه؟!

وظهرت «لوزة» في الشرفة تلبس «مايوه» أزرق جميلًا ... ووجهها قد لوحته شمس «فينسيا» الدافئة، وأقبلت مسرعةً وصاحت: لماذا تجلس هنا وحيدًا؟ ... إن المياه ممتعة ... والأصدقاء الإيطاليون في غاية الظرف، فلماذا لا تُشاركنا اللعب؟!

ابتسم «تختخ» لـ «لوزة» ودعاها للجلوس معه، وطلب لها زجاجة كوكاكولا مثلجة، ثم قال لها: إننا الآن في مأزق يا «لوزة» ... وأنا أشعر بالمسئولية؛ لأني كنت صاحب فكرة الرحلة إلى «فينسيا» ... ثم إلى ميلانو، وكما تعلمين إن هناك صراعًا حول صندوق «كلب البحر» من عصابة «ماريو» وعصابة «ستافرو»، وإنني لا أخاف على نفسي ولكن أخاف عليكم.

قالت «لوزة»: لا تخف يا «تختخ» علينا، لقد استطعنا أن نمر بمغامرات رهيبة دون أن نفقد شيئًا ... وسوف ننفذ هذه المرة أيضًا.

ابتسم «تختخ» وهو يقول: كيف؟ هل عندك خطة معيَّنة؟

قالت «لوزة»: خطتي الوحيدة الآن أن أستمتع بهذا الشاطئ الممتع وبعدها نُفكِّر في مواجهة العصابتَين.

ضحك «تختخ» طويلًا، ولم يستطِع مقاومة «لوزة» وهي تسحبه من يده، وتجره إلى البلاج حيث شارك الأصدقاء لعبهم ومرحهم، على حين كانت البارونة «شيليا» تُراقبهم وهي تجلس على الشاطئ سعيدة.

وانتهى اليوم الجميل في المساء، وركبوا القارب السريع عائدين إلى قصر «لونجي» حيث ينزلون ... وأخذ كلٌّ منهم دشًّا دافئًا، ثم ارتاحوا قليلًا، ودعاهم «تختخ» قبل العشاء إلى اجتماعٍ في غرفته.

قال «تختخ»: أيها الأصدقاء ... لقد مررنا حتى الآن خلال مغامرات كثيرة، وواجهنا معًا أعقد المواقف وأشدها خطورة ... ولكن الموقف الذي نحن فيه الآن أخطرها جميعًا ...

سكت «تختخ» لحظات، ثم عاد يقول: إننا لا نُواجه لصًّا واحدًا ... ولا حتى عصابةً واحدة ... ولكن نواجه عصابتَين في وقتٍ واحد ... وليس هذا في مصر بين أهلنا أو قريبًا من المفتش «سامي»، حيث نطلب مساعدته في الوقت المناسب. إننا بعيدون عن الوطن بآلاف الأميال، وعلينا أن نُواجه المعركة وحدنا.

قال «عاطف»: خطبة بليغة حقًّا ... إنك تستطيع أن تكون ...

ولكن قبل أن يتم جملته صاح فيه بقية الأصدقاء: دعك من هذا الهراء الآن! ... إننا نُريد أن نستمع إلى «تختخ»!

مضى «تختخ» يقول: إن العصابتَين تتصوَّران أن عندنا الصندوق الذي سلَّمه لي «كلب البحر»، ولن يُصدِّق رجال العصابتَين أنه ليس معنا؛ ولهذا قرَّرت أن يكون عندنا هذا الصندوق.

قال الأصدقاء في نفَسٍ واحد: كيف؟

قال «تختخ»: سنجد صندوقًا نضع فيه كميةً من الملح الأبيض ونربطه جيدًا، ونكتب عليه العنوان كما أتذكَّره.

وقبل أن يسأل الأصدقاء أسئلةً أخرى، جاءت «جينا» تدعوهم للعشاء.

خدعة في الظلام

قضى الأصدقاء سهرةً هادئةً في القصر الكبير مع «شيليا»، وكان أكثر حديثهم يدور حول الليلة التالية حين يُقام مهرجان «رد سنتور» الكبير، الذي يشترك فيه كل سُكَّان «فينسيا»، وحيث تُصبح المدينة العائمة شعلةً من النور ... وشوارعها مواكب مضيئة من القوارب والجندول ... واشتاق الأصدقاء إلى المشاركة في هذا المهرجان الكبير ... فهو أول مهرجان يُشاهدونه في أوروبا المشهورة بأنواع مهرجاناتها التقليدية.

ونام الأصدقاء واستيقظوا على صباحٍ مشرق ... أكَّد أن ليلةً صيفيةً جميلةً ستهبط على «فينسيا» وتُساعد في إبراز جمال المهرجان ... وقالت «شيليا» إنها قد أعدَّت لهم صباحًا رحلةً في القارب يزورون فيها المعالم الأثرية الهامة في «فينسيا» التي اشتُهرت بكثرة الكنائس القديمة فيها ... ولكن «تختخ» اعتذر عن مصاحبتهم في جولتهم ... وطلب من «محب» أن يصحبه في جولة أخرى في المدينة. وهكذا ركب «عاطف» و«نوسة» و«لوزة» مع البارونة العجوز قاربها السريع، واتجه «تختخ» و«محب» مشيًا على الأقدام عبر الشوارع الضيِّقة المرصوفة الموصلة بين القصر وبين ميدان «سان ماركو»، حيث اتفق الجميع على التقابل هناك ظهرًا لتناول الغداء.

كانت المدينة قد لبست زينتها استعدادًا للمهرجان ... وعلَّقت المحالُّ على أبوابها الشرائط والبالونات واللافتات الملوَّنة، ومضى «تختخ» و«محب» يسيران ويُشاهدان ويتحدَّثان.

قال «محب»: بالطبع نحن لم نخرج للنزهة ... لا بد أن في ذهنك شيئًا ما تُريد تحقيقه.

ردَّ «تختخ» وهو يتلفَّت حوله: إنني أُحس بأفراد العصابتَين حولنا في كل ساعة ... إنهم يتصوَّرون أننا أخفينا الصندوق في مكانٍ ما؛ فعندما عدنا أمس ليلًا اكتشفتُ أنهم

فتَّشوا غرفتي بمهارةٍ في أثناء غيابنا ... ولا شك أنهم فتَّشوا غرفكم أيضًا، ولكنكم لم تُحسوا بذلك ... فقد أعادوا كل شيء إلى مكانه تمامًا ... ولكني استطعتُ أن أعرف.

محب: معنى ذلك أنهم يعتقدون الآن أن الصندوق في مكانٍ آخر!

تختخ: بالضبط ... وهذا ما يجعلني أعتقد أنهم يتبعوننا في كل مكان، وقد فكَّرت أن ننقسم إلى فرقتَين لعلنا نستطيع تضليلهم ... وفي نفس الوقت أُريد مشاهدة محل «جراتسي» قرب جسر «الريالتو»، وهو المحل الذي كان من المفروض أنني سأُسلِّم الصندوق لـ «ماريو» فيه.

محب: وماذا تتوقَّع أن تجد هناك؟

تختخ: لا أدري بالضبط ... ولكن من المهم أن نعرف المكان ... فقد تحدث تطوُّرات غير متوقَّعة.

وسار الصديقان عبر الشوارع و«تختخ» ينظر حوله أحيانًا، وأحيانًا أخرى يقف عند واجهات المحلَّات وكأنه يبحث عن شيءٍ ما.

قال «محب»: هل تُفكِّر في شراء شيء؟

تختخ: أبحث عن صندوقٍ فارغٍ في حجم صندوق الأحذية.

محب: لماذا؟

تختخ: كما قلتُ لكم أمس إنني أُفكِّر في خداع العصابتَين حتى نُغادر «فينسيا» ونصل «ميلانو»!

محب: ولكن إذا اشتريت الصندوق الآن ورأوه معك؛ فقد يستنتجون الحقيقة ونُصبح معرَّضين لخطرٍ أكبر ... فلا شك أنهم لم يفتكوا بنا حتى الآن لأن عندهم الأمل في الحصول على الصندوق.

تختخ: هذا تحليل بارع يا «محب»، وبالطبع فإنني لن أشتري الصندوق وأسير به في الطريق، إن في رأسي فكرةً أخرى ... فقط أُريد أولًا مشاهدة محل «جراتسي» هذا.

وظلَّ الصديقان سائرَين حتى وصلا إلى جسر «الريالتو»، وسرعان ما عثرا على محل «جراتسي». كان محلًّا صغيرًا له واجهة زجاجية صُفَّت فيها أنواع من مختلِف الأسلحة وأدوات الصيد، وقال «محب» وهو يتأمَّلها: إن في هذه الواجهة ترسانة أسلحة تكفي جيشًا صغيرًا.

قال «تختخ»: تمامًا.

وأخذ «تختخ» يتلفَّت حوله، ثم دخل المحل ومعه «محب» وقد أدهشته جرأة «تختخ» ... وعندما دخلا المحل نصف المظلم تقدَّم منهما رجل عجوز يلبس نظارةً طبيةً قائلًا: بونجورنو.

ردَّ «تختخ» بثبات: بونجورنو سينوري ... كوم استاي؟

ردَّ الرجل: بيني.

والتفت «تختخ» إلى «محب» قائلًا: قال لي صباح الخير، فقلتُ له صباح الخير ... كيف الحال؟ ورد الحال عال.

ثم عاد «تختخ» للحديث مع الرجل قائلًا: «ماريو».

ردَّ الرجل: «ماريو» ... أوشيتا!

أخرج «تختخ» ورقةً من جيبه وقلمًا، ثم كتب رسالةً سريعةً إلى «ماريو»: «إذا ... استطعتَ حمايتي من «ستافرو» ورجاله، فسوف أُخبرك أين تجد الصندوق ...»

ثم ناول الورقة إلى الرجل قائلًا: «ماريو».

أحنى الرجل رأسه وتناول الورقة سريعًا ووضعها في جيبه، وخرج الصديقان.

قال «محب»: ما معنى «أوشيتا»؟

تختخ: معناها خرج.

محب: بيرفافوري؟

تختخ: معناها من فضلك.

محب: إذن أنت سألتَه عن «ماريو» ... فقال لكَ إن «ماريو» خرج، فأعطيتَه الورقة لتوصيلها إلى «ماريو».

تختخ: بالضبط.

محب: وما هي خطتك؟

تختخ: خطتنا ... بل أملنا الوحيد أن نوقع بين العصابتَين بحيث تحمينا كل عصابةٍ من الأخرى حتى نترك المدينة.

وعادا للسير وقال «تختخ»: إنني أُريد شراء صندوقٍ فارغ وكمية من ملح الطعام وحقيبة.

محب: أفهم حكاية شراء الصندوق ... والملح ... ولكن ما فائدة الحقيبة؟

تختخ: لأضع فيها الصندوق فلا يراه أحد.

ودخل الصديقان أحد محلَّات بيع الحقائب والأحذية، فاشتريا الحقيبة، وطلبا صندوقًا فارغًا من صناديق الأحذية ووضعاه داخل الحقيبة وانصرفا. وكانت ساعة الغداء تقترب،

فأخذا طريقهما إلى ميدان «سان ماركو» واتجها إلى مقهى «فلوريان»، حيث اعتادت البارونة أن تجلس.

كانت البارونة متحمِّسةً جدًّا لسهرة الليلة الكبرى بمناسبة مهرجان «رد سنتور»، فأخذت تُحدِّثهم عن ذكرياتها عن «فينسيا»، وانتهزت «لوزة» و«نوسة» هذه الفرصة وذهبتا إلى حيث تقف أُلوفٌ من أسراب الحمام في الميدان، فاشترتا كميةً من الذرة، وأخذتا تُطعمان الحمَام الذي كان يهبط على أيديهما وأكتافهما. وبعد أن تناولوا طعام الغداء، قاموا جميعًا عائدين إلى القصر، حيث قضَوا فترة راحة طويلة استعدادًا للسهرة.

أمَّا «تختخ» فقد ذهب إلى المطبخ وطلب كميةً كبيرةً من ملح الطعام ... وكانت «جينا» مندهشةً لطلبه، ولكنها أعطته ما طلب، ووضع «تختخ» كمية الملح الكبيرة في الصندوق، ثم غلَّفه بورقةٍ بيضاء، وكتب عليه العنوان الذي تذكَّره: «جسر «الريالتو»، محل «جراتسي»، «ماريو».» ولكن «تختخ» أدرك أن العصابة ستعرف أن الكتابة ليست بخط «كلب البحر»، وأخذ يُفكِّر في طريقة يُموِّه بها على العصابة ... وفي تلك اللحظة دخل «عاطف» وشاهد الصندوق وسأل «تختخ» عنه، فروى له «تختخ» خطته، فقال «عاطف»: المسألة بسيطة ... ألقِ بعض الماء فوق الكتابة وكأنها مياه من البحر وقعت على الكتابة، بحيث لا تُصبح واضحةً ولا يعرف أحدٌ خط من هذا.

ابتسم «تختخ» وقال: أُحيِّيك يا «عاطف».

قال «عاطف»: إنني أُلاحظ أنك تعمل وحدك هذه الأيام، ومن المفروض أن يشترك المغامرون كلهم في المغامرة.

تختخ: إنني أخاف عليكم.

عاطف: ونحن نخاف عليكَ أيضًا.

تختخ: على كل حال ... سوف ندخل صراعًا قويًّا في الساعات القادمة، وسنحتاج إلى المغامرين جميعًا.

عاطف: وما هي خطواتك التالية؟

تختخ: أُريد أن أُخفي هذا الصندوق في مكانٍ لا تستطيع العصابة الوصول إليه إلا في الوقت الذي أُحدِّده.

عاطف: ضَعه في الحديقة في حفرة ... وسوف لا يستطيع أحدٌ الاقتراب منه؛ فسيكون في حماية كلاب «الماستيف» الثلاثة.

تختخ: فكرة ممتازة! ... سننتظر حتى يهبط الظلام وندفن الصندوق.

لبس الجميع أفخر ثيابهم، وعندما جاء المساء كانوا قد استعدُّوا تمامًا للخروج … ولكن «تختخ» الذي كان يُريد الانتظار حتى يدفن الصندوق طلب منهم أن يسبقوه.

وخرج الجميع، وانتظر «تختخ» حتى أظلمت الدنيا تمامًا، ثم أسرع إلى الحديقة، وتحت شجرة ضخمة، وبفأس أخذها من كشك الجنايني، حفر الأرض، ثم أخفى الصندوق.

وقف «تختخ» بجوار القصر في انتظار جندول يركبه إلى جسر «الريالتو»، حيث اتفقوا على اللقاء هناك، وكانت مئات من قوارب الجندول السوداء تنطلق منها الموسيقى والأنوار، تحمل السيَّاح إلى قلب المدينة حيث يصل المهرجان إلى قمته عند منتصف الليل.

وأخيرًا وجد «تختخ» جندولًا فارغًا قفز فيه، وصاح بالرجل: «ريالتو» بريجو!

وأطلق الرجل مجدافَيه في الظلام، وأخذ القارب يشق طريقه بين بقية القوارب. كان «تختخ» يجلس في نهاية القارب ينظر حوله إلى شواطئ «فينسيا» وقد تحوَّلت إلى مهرجانٍ من الأضواء، وفجأةً وجد شخصًا يقفز من قارب آخر إلى قاربه … في هدوء وخفة كأنه قط … دون أن يحس البحَّار الذي كان منشغلًا بعمله، وقال الرجل في هدوء: هل أحضرتَ الصندوق؟

أذهلت المفاجأةُ «تختخ» لحظات، ثم سأل: من أنت؟

قال الرجل في صوتٍ خافت: إنني من طرف «ماريو».

تختخ: لقد أرسلتُ له هذا الصباح رسالةً أطلب حمايتي من عصابة «ستافرو» مقابل الصندوق.

ضحك الرجل في الظلام ضحكةً ارتعد لها «تختخ» وقال: أنتَ إذن تتعاون مع عصابة «ماريو» … إنني من طرف «ستافرو»، وكنا نُريد أن نعرف هل أنتَ معنا أم معه.

وقبل أن يرد «تختخ» … الذي أحسَّ بقلبه يكاد يسقط بين قدمَيه … قفز الرجل مرةً أخرى إلى قاربه، ثم اختفى في الظلام كما ظهر، وترك «تختخ» والدنيا تدور به … لقد اكتشف «ستافرو» أنه يتعاون مع «ماريو»، وسيُنزل به وبأصدقائه أشد العقاب.

في المهرجان

وصل «تختخ» إلى جسر «الريالتو» وقد احتشد أُلوف الناس في ملابسهم الملوَّنة يرقصون ويُغنون على أنغام الموسيقى المرتفعة، والضحكات والصيحات ترتفع من هنا وهناك ... وقفز «تختخ» إلى الرصيف، وأعطى البحَّار أجره، ثم أخذ يبحث عن الأصدقاء ... وأدرك بعد فترة من الوقت أنه كان مخطئًا عندما تركهم يسبقونه ... فلم يكن من السهل العثور عليهم وسط الألوف الصاخبة وحركة الناس القادمين والرائحين.

انتهز «تختخ» الفرصة، وقرَّر أن يزور محل «جراتسي» مرةً أخرى.

كان يُريد مقابلة «ماريو» وإخطاره بما حدث ... وبعد صعوبات كثيرة وصل إلى المحل ... ولكن وجده مغلق الأبواب ... فوقف يتأمَّل الواجهة الزجاجية وما بها من بنادق ومسدَّسات وأدوات صيد ... وفجأةً وفي وسط الضجة والزحام، فُتح باب المحل، وامتدَّت يدٌ قوية جذبت «تختخ» إلى الداخل، وأُغلق الباب.

وجد «تختخ» نفسه قد انتقل من الضوء الباهر إلى الظلام الدامس، فوقف مرتبكًا دون أن يرى أي شيء ... ثم سمع في الظلام صوت «ماريو» يقول: مرحبًا بك في محلنا المتواضع.

وأحسَّ «تختخ» باليد التي أمسكته تجرُّه إلى الداخل، وبدأت عيناه تألفان الظلام، وأحسَّ أنه يمر في ممرٍّ ضيق، ثم ينزل سلَّمًا صغيرًا ينتهي بباب فُتح فجأةً ووجد نفسه مرةً أخرى في الضوء الباهر.

نظر «تختخ» حوله ... كان في غرفةٍ صغيرةٍ ليس بها من منافذ إلا الباب الذي دخل منه ... ونافذة مغلقة بالسلك السميك ... وكان في وسط الغرفة مائدة مستديرة جلس حولها عدد من الرجال بينهم الرجل العجوز الذي قابله في المحل صباحًا.

كانت العيون كلها مركزةً عليه وهو يقف في ثباتٍ ينظر إليهم ويتأمَّلهم واحدًا واحدًا …

وكان «ماريو» قد تركه ومشى، ثم جلس إلى المائدة وأشار إلى كرسي ليس عليه أحدٌ قائلًا: اجلس.

تقدَّم «تختخ» في هدوءٍ وجلس … وكان عدد الحاضرين خمسة، وقد وضع أحدهم أمامه على المائدة مسدَّسًا ضخمًا يُشبه المدفع الصغير … وقال «ماريو» بالإيطالية كلمات سريعةً فهم منها «تختخ» أنه يقول لهم إن هذا الولد هو الذي أوقع «كلب البحر».

ارتفعت الكلمات من الأفواه كلها مرةً واحدة … وتذكَّر «تختخ» ما يُقال عن حب الإيطاليين للكلام … ولم يكن في إمكانه أن يُتابع كل ما يقال … أو يفهم منه شيئًا كثيرًا … ولكنه أدرك أن بعض أفراد العصابة يرون الانتقام منه لِما فعل، والبعض الآخر يرى أن الأهم هو الحصول على الصندوق.

وطال الكلام … وفجأةً ضرب «ماريو» المنضدة بكفِّه ضربةً قوية، ثم صاح مطالبًا الجميع بالسكوت … وعادت الغرفة إلى هدوئها، والتفت «ماريو» إلى «تختخ» قائلًا بلغةٍ عربية ركيكة: أرجو أن تكون قد فهمت ما يقولونه … إن بعضهم يُريد الانتقام منك ومن بقية زملائك؛ لأنك ألقيتَ بالزعيم في السجن … والبعض الآخر يرى أن المهم الآن أن تُسلِّمنا الصندوق … فماذا ترى؟

كان ذهن «تختخ» يعمل بسرعة … فهو في مأزق … وحتى لو سلَّم الصندوق إلى «ماريو» فسوف يكتشف سريعًا أن ما به ليس سوى كميةٍ من الملح لا تُساوي بضعة قروش …

قال «ماريو» بنفاد صبر: الأفضل لكَ ألَّا تُفكِّر كثيرًا … قل لنا أين الصندوق فنطلق سراحك ولا نتعرَّض لكَ بعد ذلك.

كان «تختخ» يُريد كسب بعض الوقت ليتمكَّن من التفكير فقال: ومن الذي يضمن لي أنكم ستكتفون بأخذ الصندوق؟! إنني أخشى أن تأخذوه ثم تفتكوا بي.

أشار «ماريو» بيده إلى «تختخ» قائلًا: يكفي أن أقول لكَ كلمةً لتُدرك أنني سأُنفِّذها … إنها كلمة شرف.

تختخ: وهل هناك كلمة شرف في العصابات وبين القتلة؟

وقف «ماريو» وقد احمرَّ وجهه حتى كاد ينفجر وصاح: إننا لن نسمح لطفلٍ مثلك أن يلعب بنا! … ويكفي أننا لم نقتلك حتى الآن … ونُلقي بجثتك إلى الأسماك!

قال «تختخ»: سوف أدلكم على مكان الصندوق بعد أن أُغادر «فينسيا».

وفي هذه اللحظة وقف أحد الرجال ... كان ضخمًا كالثور، وقد غطَّى الشعر جسده كالقرد، واقترب من «تختخ» وقد تطاير من عينَيه شرار الغضب، وأخذ يصيح بالإيطالية مهدِّدًا ... أدرك «تختخ» أن الرجل يُريد أن يضربه، فقفز سريعًا إلى الخلف وأمسك بالمقعد في يده ... ولكن الرجل هجم عليه كالوحش وكاد يمسك به، لولا أن وقف «ماريو» ووجَّه حديثًا سريعًا إلى الرجل، ثم قفز إليه وأمسكه وجذبه إلى الخلف ...

تكهرب الجو في الغرفة ... وبدا واضحًا لـ «تختخ» أنه وقع في مصيدة لا فكاك منها.

وفجأةً ومن أحد جوانب الغرفة ارتفع صوت جرسٍ خفيف، فأنصت الجميع ... وقال «ماريو» لأحد الرجال كلامًا، فقام الرجل وفتح الباب وصعد السلَّم ... وعاد بعد لحظات ومعه رجل آخر دخل مسرعًا وأنفاسه تتلاحق، ثم تحدَّث بسرعة ... وعندما أتمَّ كلامه الذي لم يفهم منه «تختخ» شيئًا، التفت «ماريو» إلى «تختخ» قائلًا: لقد خطف «ستافرو» البنت الصغيرة!

قفز «تختخ» مرتاعًا وصاح: «لوزة»؟! كيف؟!

ماريو: انتهز فرصة الزحام في المهرجان، واستطاع أن يأخذ الفتاة بعيدًا عن زملائها، ثم أركبها قاربًا وذهب بها بعيدًا.

والتفت «ماريو» إلى القادم الجديد وسأله سؤالًا، فردَّ الرجل بكلمةٍ واحدةٍ أدرك «تختخ» أنها المكان الذي نُقلت إليه «لوزة»، وكانت الكلمة «كابيللو نيرو».

أحسَّ «تختخ» بالدنيا تدور به ... والغرفة تضيق وتتسع ... والوجوه تتضخَّم وتتضاءل ... لقد اختطفوا «لوزة» الصغيرة الرقيقة في مدينةٍ غريبةٍ بعيدًا عن الوطن بأُلوف الأميال، حيث لا يَعرِف أحدًا، وحيث لا يستطيع أن يتصرَّف ...

سمع «تختخ» صوت «ماريو» ... وهو يتحدَّث عن الصندوق وكأن صوته يأتي من بئر عميقة ... ومضت لحظات، ثم بدأ «تختخ» يستعيد توازنه، وأخذ يُفكِّر بسرعة ... وكانت أحاديث الرجال تصل إلى أذنَيه فلا يفهم شيئًا منها؛ فقد كان كلُّ ما يُفكِّر فيه «لوزة» وكيف يُنقذها.

عاد «ماريو» يقول: هل ستُسلِّمنا الصندوق أو لا؟

ردَّ «تختخ»: هل أُسلِّمك الصندوق فيقضي «ستافرو» على «لوزة»؟! إنك تُفكِّر بطريقة مضحكة.

تحدَّث «ماريو» مع بقية أفراد العصابة، ثم عاد يتحدَّث إلى «تختخ»: وهل إذا أعدنا إليك الفتاة تُسلِّم لنا الصندوق؟

تختخ: بالتأكيد ... سوف أُسلِّم الصندوق لمن يُعيد لي الفتاة أولًا ... سواء أنت أم «ستافرو» ...

أخذ «ماريو» يتحدَّث مع رجاله ... وارتفع حديثهم، وفهم منه «تختخ» أن بعض أفراد العصابة يُريدون تعذيبه حتى يُقر بمكان الصندوق.

فوقف ووجَّه حديثه إلى «ماريو» قائلًا: قل لهم إنني لا أخاف التهديد ... ولن أُقر بمكان الصندوق إلا بعد أن تعود «لوزة» وأغادر «فينسيا»، وقبل ذلك بثانيةٍ واحدةٍ لن أقول كلمةً واحدة.

وبعد أن انتهى من كلامه قام واقفًا واتجه بكل ثباتٍ إلى الباب ... فلم يقف أحدٌ في طريقه، ثم قفز أحد الرجال خلفه، ففتح له الباب، ثم صعد السلَّم وفتح له الباب الخارجي، وخرج «تختخ» من المحل الصغير إلى المهرجان الذي كان في قمته ... كان في ذهنه كلمةٌ واحدة يُردِّدها باستمرار ... «كابيللو نيرو»، ما معناها؟ هل هي مكان، أم شخص، أم ماذا؟

وهل يستطيع أن يسأل واحدًا من الناس حوله ... ولكن كيف؟! إنهم جميعًا مشغولون بالمهرجان ... كلهم سعداء يرقصون ويُغنُّون ويشربون ويأكلون، وليس فيهم أحدٌ يُضيِّع وقته في الحديث معه.

كان كل شيء حول «تختخ» صاخبًا، ولكن رأسه كان أكثر صخبًا من كل هذا، كان يغلي بالأفكار والتصوُّرات السوداء ... وأخذ يسير على غير هدًى يصطدم بالناس ويبحث عن الأصدقاء ... لقد اتفقوا على أن يلتقوا به فوق جسر «الريالتو» ... فلْيذهب إلى هناك.

وصل إلى الجسر وكان الزحام على أشده ... وتأكَّد أنه لن يستطيع العثور على الأصدقاء ... وقرَّر أن يعود إلى القصر مشيًا على الأقدام، ولم يكن يعرف الطرق جيدًا، ولكنه تذكَّر أن القصر لا يبعد من الجسر كثيرًا، واستطاع برغم الزحام أن يصل إلى هناك. كان القصر مظلمًا ولا أحد عند السور ... لم يكن هناك سوى الكلاب الثلاثة التي استقبلته بنباحٍ قوي ... وأحسَّ «تختخ» أن ثمَّة شيئًا غير عادي يدور في الحديقة، وأن الكلاب تنبح لهذا السبب ... وتذكَّر الصندوق المدفون، لا بد أن أحدًا يُحاول الحصول عليه! ولكن من؟

إن عصابة «ستافرو» خطفت «لوزة» لتعرف مكان الصندوق ... وقد كان مع عصابة «ماريو» الآن، ومن الواضح أنهم لا يعرفون المكان ... فمن الذي هنا؟!

وقبل أن يخطو خطوةً أخرى سمع صوتًا في الظلام بجوار سور القصر يقول له: لقد جئتُ أتسلَّم الصندوق لنطلق سراح «لوزة»! لا تُحاول عمَل شيء ... أين الصندوق؟

التفت «تختخ» إلى مصدر الصوت ولكنه لم يرَ أحدًا ... وأخذ يُفكِّر بسرعة ... بماذا يُجيب؟ ... لو أعطاهم الصندوق المزيَّف فسوف يكتشفون الحقيقة في دقائق قليلة، وتكون نهاية «لوزة»!

كان لا بد أن يقول شيئًا، فردَّ في ثبات: الصندوق ليس هنا ... لقد وضعتُه في مكانٍ بعيد ... أطلقوا سراح «لوزة» أولًا!

ردَّ صاحب الصوت في الظلام: لن نستمع إلى أية شروط ... الصندوق أولًا.

في تلك اللحظة سمع «تختخ» صوت قارب يقترب ... ثم هدَّأ من سرعته، فتأكَّد أنه قارب البارونة «شيليا»، فقال: اتصل بي تليفونيًّا وسنتفاهم.

وبعد لحظات كانت البارونة والأصدقاء يصعدون سلالم القصر ... وأُضيئت الأنوار ... كانوا جميعًا في حالةٍ يُرثى لها من الحزن والفزع ... وقالت البارونة في جزع: ألم ترَ «لوزة»؟ ... لقد تاهت منا في الزحام!

ردَّ «تختخ»: لا لم أرَها.

البارونة: لقد أبلغتُ البوليس ... وسيجدونها حتمًا.

تختخ: إنهم لن يجدوها مطلقًا ... لقد خُطفت «لوزة»!

البارونة: خُطفت؟! ولماذا؟ ومن الذي خطفها؟!

تختخ: إن لهذا قصةً طويلة ... المهم الآن هل تعرفين مكانًا أو شخصًا يُدعى ... «كابيللو نيرو»؟

فتحت البارونة عينَيها في خوفٍ وقالت: «كابيللو نيرو»؟!

تختخ: نعم ... «كابيللو نيرو».

البارونة: إنه قصر عتيق يقع في نهاية القناة الكبرى ... قصر رهيب يخشى أيُّ إنسان أن يدخله ... ولا يسكنه إلا اللصوص والمجرمون!

«كابيللو نيرو»

أخذت البارونة «شيليا» تبكي ... فاقترب منها «تختخ» قائلًا: أرجو أن تُساعدينا على استعادة «لوزة».

قالت البارونة من بين دموعها: كيف؟! إنني على استعدادٍ لعمل أي شيء في العالم لاستعادتها ... ولكنك تقول إنها خُطفت! فلماذا خطفوها؟ إذا كانوا يريدون مالًا فسأدفع لهم أي مبلغ.

ردَّ «تختخ»: لا وقت لأشرح لك كل شيء ... ولكن الحكاية متعلِّقة بصندوقٍ كان «كلب البحر» قد أعطاه لي لأُسلِّمه لشخصٍ يُدعى «ماريو»، وهذا الصندوق ضاع ولا أعرف أين هو الآن ... و«ماريو» لا يُصدِّق أنه ضاع ... وهناك شخصٌ آخر يُدعى «ستافرو» يُريد الحصول على الصندوق أيضًا ... وكلٌّ منهما له عصابة قوية ... وقد قام «ستافرو» بخطف «لوزة» لأنه يعتقد أنني سأُسلِّم الصندوق لـ «ماريو».

البارونة: إنه شيء غريب! ... فماذا في هذا الصندوق؟

تختخ: شيء مهرَّب له قيمة كبيرة.

شيليا: لنتصل بالبوليس!

تختخ: لن نتصل به الآن ... سأقول لك على الوقت المناسب للاتصال به.

شيليا: وكيف أُساعدكم؟

تختخ: أُريد أن آخذ القارب البخاري ... والكلاب الثلاثة ومدرِّبها.

شيليا: خذ ما تشاء.

والتفت «تختخ» إلى الأصدقاء وقال: ستبقى «نوسة» هنا مع البارونة لنتصل بها عندما نشاء ... وسيأتي معي «محب» و«عاطف».

وصاحت «شيليا» تطلب «ميشيل» مدرِّب الكلاب الذي حضر على الفور، وكتب «تختخ» رقم تليفون القصر، ثم قال للبارونة: إنني ذاهب إلى قصر «كابيللو نيرو» حيث أعتقد أن «لوزة» موجودة، فإذا لم نتصل بك أو نعُد حتى الصباح؛ فاتصلي بالبوليس واطلبي منه مهاجمة القصر.

وأسرع الأصدقاء يُغادرون القصر إلى الزورق ومعهم الكلاب الثلاثة المتوحِّشة ومدرِّبها ... وقبل أن يركب «تختخ» الزورق أسرع إلى الحديقة حيث أحضر الصندوق والفأس، ثم قفز معهم وصاح بالسائق: إلى جزيرة «مورانو» أولًا!

قال «محب»: جزيرة «مورانو»! ... لماذا؟

تختخ: لقد فكَّرتُ في خطةٍ أرجو أن تنجح. إننا نُريد أن نجمع العصابتَين في مكانٍ واحد، بعيدًا بما يكفي لمغادرة المدينة قبل أن يلحقوا بنا.

وأخذ الزورق يشق طريقه بسرعة هائلة عبر القناة الكبيرة في الظلام، في حين كانت المدينة ما تزال تحتفل بالمهرجان برغم أن الساعة قد تجاوزت منتصف الليل.

كانت جزيرة «مورانو» تقع شمال المدينة ... جزيرة صغيرة اشتُهرت بصنع أنواع من البلَّور الملوَّن يُسمَّى باسمها ... وتبعد عن «فينسيا» بحوالي ساعةٍ بالزورق السريع.

وجلس الأصدقاء بأعصاب متوتِّرةٍ يُفكِّرون في المغامرة المقبلة ... وقبعت الكلاب الثلاثة في قاع الزورق تُهمهم في وحشية، ومُدرِّبها يُمسك بها في انتظار تعليمات «تختخ».

خرج الزورق من المدينة وأخذ يجري في اتجاه جزيرة «مورانو»، وأصوات الاحتفال تبتعد شيئًا فشيئًا ... ومضت نحو ساعةٍ وظهرت الجزيرة الصغيرة في وسط البحر، ثم اقترب الزورق منها ووقف ... وقفز «تختخ» إلى صخرةٍ واضحةٍ في أول الجزيرة، وبجوارها حفَر حفرةً بسرعة، ثم وضع الصندوق وترك الفأس بجواره.

وعاد إلى الزورق ... وعاد الزورق يشق طريقه مرةً أخرى إلى «فينسيا» ... وأخذ «تختخ» يشرح للأصدقاء ما سيحدث فقال: عندما نصل إلى الشاطئ سأتصل بعصابة «ماريو» تليفونيًّا وأُخبرهم أن الصندوق في جزيرة «مورانو» ... وأصِف لهم مكانه ... ثم نذهب إلى قصر «كابيللو نيرو» حيث توجد «لوزة». سأدخل أنا إلى القصر أولًا وأتفاهم مع «ستافرو» ليُطلق سراح «لوزة»، وأقول له على مكان الصندوق ... فإذا عُدت لكم ومعي «لوزة» ... فسننصرف معًا ... أمَّا إذا تغيَّبت أكثر من نصف ساعة فعليكم بالهجوم ومعكم الكلاب الثلاثة.

وبعد ساعة كان الزورق يقترب من «فينسيا» ... مرةً أخرى، فقال «تختخ»: البرجو ... بريستو.

ثم قال بالعربية: طلبتُ منه الذهاب إلى فندقٍ بسرعة.

ووقف الزورق أمام أحد الفنادق ... وأسرع «تختخ» إلى التليفون حيث تحدَّث مع «ماريو» وشرح له مكان الصندوق.

وعاد «تختخ» إلى الزورق وقال للسائق: «كابيللو نيرو» ... بريستو.

وأسرع القارب بهم يشق القنوات حتى وقف بجوار قصرٍ قديم مظلم ... ووقف الأصدقاء الثلاثة ينظرون إليه في رهبة. كان قلعةً حصينةً من القرون الوسطى ... ولا تظهر منه بارقةُ ضوءٍ واحدة.

قال «عاطف»: كيف تقتحم هذا القصر؟! إنه قلعة لا يمكن اقتحامها!

تختخ: لا تنسَ أن «لوزة» موجودة هنا.

ثم قفز «تختخ» إلى الرصيف وقال للصديقَين: بحسب اتفاقنا إذا لم أعُد بعد نصف ساعة فاهجموا، ولتقفوا بعيدًا حتى لا يراكم أحد.

وسار «تختخ» وهو لا يدري من سيُقابل ... وكيف يصل إلى مكان «لوزة» ... وهل هي موجودة حقًّا أو لا؟ وهل يراه أفراد العصابة الآن؟ وهل يُصدِّقه «ستافرو» أم لا يُصدِّقه؟

كان باب القصر كأكثر المباني في «فينسيا» يفتح على المياه مرتفعًا عنها ببضع درجات ... فصعد «تختخ» درجات القصر متمهِّلًا وهو يُفكِّر، ثم دخل إلى الردهة الواسعة المظلمة ... وأخذ يسير في الظلام مادًّا يدَيه أمامه حتى لا يصطدم بشيء ... وعندما وصل إلى نهاية الردهة اصطدمت يداه بحائط، فسار بجواره وهو يتحسَّسه، حتى وجد بابًا مفتوحًا فدخل وهو مندهش ... وفجأةً أُضيء نور قوي وسمع ضحكةً وصوتًا يقول: أنت!

عرف «تختخ» أن المتحدِّث هو «ستافرو»، وفتح عينَيه ببطء ... وفي الضوء الباهر وجد «ستافرو» يجلس إلى مائدةٍ ضخمةٍ قديمة، وبجواره رجاله وقد بدا على وجوههم الشر والقسوة.

قال «ستافرو»: هل جئتَ بالصندوق معك؟

تختخ: هل «لوزة» هنا؟

ستافرو: إنني الذي يسأل ولستَ أنت ... هل جئتَ بالصندوق معك؟

تختخ: لن أُجيب حتى تُجيب أنت.

ستافرو: إن «لوزة» هنا طبعًا.

تختخ: أطلِق سراحها فورًا!

ضحك «ستافرو» وأخذ يُترجم الحديث إلى الإيطالية لأعوانه ... على حين أخذ «تختخ» يتلفَّت حوله في الصالة الواسعة التي دخلها ... لم يكن هناك أثرٌ لصديقته الصغيرة، وكانت الأبواب الضخمة التي تفتح على الصالة مغلقة كلها بالترابيس الكبيرة ولا أثر لـ «لوزة».

عاد «ستافرو» إلى الحديث قائلًا: كيف وصلتَ إلى هنا؟

تختخ: أحد أفراد عصابة «ماريو» شاهدكم وأنتم تخطفون «لوزة»، وقال لـ «ماريو» ... واستطعت أن ألتقط كلمة «كابيللو نيرو»، وعرفتُ أنها اسم هذا القصر.

ستافرو: وهل أعطيتَ الصندوق لـ «ماريو»؟

تختخ: لو كنتُ أعطيتُه الصندوق لما حضرتُ إلى هنا.

ستافرو: لقد حاول «ماريو» الهجوم علينا وأخذ «لوزة»، ولكننا استطعنا طرده هو ورجاله.

تختخ: متى حدث هذا؟

ستافرو: منذ نحو ساعتَين.

تختخ: لقد وعدتُ «ماريو» أن أُعطيه الصندوق إذا استطاع تخليص «لوزة» من يدك.

ضحك «ستافرو» في سخريةٍ وقال: وهل تظن أن «ماريو» يستطيع هزيمتي؟! إنه طفل بالنسبة لي!

تختخ: والآن هل تُطلق سراح «لوزة»؟

ستافرو: الصندوق أولًا!

تختخ: سوف أدلك على مكانه.

ستافرو: إذا خدعتني فسوف أنتقم منكم جميعًا، ولن أكتفي بالفتاة وحدها.

تختخ: إنني لا أخدعك، وستجد الصندوق حيث أُحدِّد مكانه، ولكن عليك أن تُطلق سراح «لوزة» أولًا.

ستافرو: لن أُطلق سراحها ... ولا أنت ستُغادر هذا المكان حتى أحصل على الصندوق أولًا ... وليس مكانه فقط.

أدرك «تختخ» أن «ستافرو» أدهى ممَّا يتصوَّر ... وأخذ يُفكِّر سريعًا؛ فلو مضت نصف الساعة فسوف يُهاجم الأصدقاء القصر ... ولن يستطيعوا التغلُّب على هؤلاء الرجال المسلَّحين ... ومن الأفضل أن يُوافق؛ فسوف يُغادر «ستافرو» القصر ... وقبل أن يكتشف حقيقة الصندوق يكون قد استطاع تخليص «لوزة» ... وترك القصر الرهيب.

قال «تختخ»: سأقول لكَ على مكان الصندوق ... ولكن يجب أن تتحرَّك سريعًا فإنني أخشى أن تكون عصابة «ماريو» قد تبعتني وأنا أُخفيه هناك ... وقد تكون الآن في الطريق إليه.

قفز «ستافرو» من مكانه وصاح: أين الصندوق؟!

ردَّ «تختخ»: إنه في جزيرة «مورانو»، ستجد صخرةً كبيرةً قُرب مرسى القوارب، وستجد بجوارها الفأس التي استخدمتها في الحفر ... وستجد الصندوق في حفرةٍ تحت الفأس.

أخذ «ستافرو» يُصدر تعليماته إلى رجاله بسرعة، فوقفوا جميعًا وقد شهروا مسدَّساتهم، وقال «ستافرو»: ستبقى هنا في حراسة رجلَين، وسأذهب إلى هناك، فإذا كانت هناك أية خدعة؛ فسأنتقم وسيكون انتقامي هائلًا ومروِّعًا!

أسرع «ستافرو» ومعه رجاله إلى الخارج ... على حين وقف رجلان يحرسان «تختخ»، وأخذت أصوات أقدام رجال العصابة تدق بلاط القصر القديم ... ثم تتلاشى تدريجيًّا، وكان ذهن «تختخ» يعمل بسرعة ... ويرجو أن يكون «محب» و«عاطف» قد نفَّذا تعليماته، وابتعدا بالزورق عن القصر حتى لا يراهم «ستافرو» فتنقلب خطته رأسًا على عقب ... وتُصبح كارثة.

دموع «شيليا»

أخذ «تختخ» ينظر إلى الرجلَين وهو يستمع إلى أي صوت يدل على مكان «لوزة» في هذا القصر المتسع ... وقرَّر أن يُجري تجرِبةً صغيرة، فتقدَّم سائرًا في اتجاه إحدى الغرف ... وحدث ما توقعه، فقد أسرع أحد الرجلَين يقف أمام أحد الأبواب الضخمة كأنه يحمي شيئًا داخله، فأدرك «تختخ» أن «لوزة» خلف هذا الباب، وأحسَّ ببعض الاطمئنان.

مضت دقائق وأدرك «تختخ» أن مدة نصف الساعة التي اتفق عليها مع الأصدقاء ليهجموا بعدها قد أوشكت على الانتهاء ... وأخذ يقترب من أحد الأعمدة ليختفي خلفه في الوقت المناسب ... فقد كان أحد الرجلَين يُوجِّه إليه مسدَّسه.

مضت لحظات صامتة ... ثم سمع «تختخ» أصواتًا تأتي من مدخل القصر ... أصوات أقدام خفيفة ... ولكنها ليست أقدامًا بشرية ... وسمع الرجلان الأصواتَ أيضًا، وأخذ أحدهما ينظر إلى الآخر ... ثم تقدَّم أحدهما وقد مدَّ يده بمسدَّسه إلى الأمام ... وارتفع صوت الأقدام العجيبة ... وكان «تختخ» يُدرك جيدًا أنها أقدام الكلاب الثلاثة المتوحِّشة ... وزاد ارتفاع الأصوات ... ثم فجأةً اندفعت الكلاب الثلاثة داخلةً كالعاصفة ... وكالبرق قفز «تختخ» خلف العمود الذي اختاره ... وفي نفس اللحظة أطلق عليه الرجل مسدَّسه فأصاب العمود ... وقفز أحد الكلاب على الرجل قبل أن يتمكَّن من إطلاق مسدَّسه ... وقفز الكلبان الآخران على الرجل الثاني ... ثم شاهد «تختخ» الصديقَين «محب» و«عاطف» يدخلان، وقد أمسك كلٌّ منهما بقطعة من الخشب كسلاح للهجوم ... ثم ظهر مدرِّب الكلاب ... وقائد القارب ... وكلٌّ منهما يُمسك قطعة خشب، ولكن الكلاب كانت قد قامت بواجبها خير قيام ... فقد أسقطت الرجلَين على الأرض وأخذت تنهشهما في وحشية، وهما يصيحان في ارتياع!

خرج «تختخ» ... من مخبئه خلف العمود، وأشار للمدرب وقائد الزورق أن يُمسكا بالمسدَّسين اللذين سقطا ... فأسرع الرجلان يُنفِّذان تعليماته، ثم قال لـ «محب» و«عاطف»: خلف الباب الضخم «لوزة»!

وأسرع الأصدقاء الثلاثة يفتحون الترابيس الكبيرة، ثم دخلوا الغرفة وأضاءوا النور ... كانت «لوزة» نائمةً على فراش صغير في ركن الغرفة الواسعة، وقد ربطها «ستافرو» ... إلى الفراش، وكمَّم فمها.

أسرع الثلاثة إلى صديقتهم الصغيرة يفكون رباطها، فارتمت في أحضانهم باكيةً وهي تقول: «تختخ» و«عاطف» و«محب» ... لقد كِدتُ أموت من الرعب!

قال «تختخ»: هيَّا سريعًا ... إننا ما زالنا في خطر.

عادوا مرةً أخرى إلى الصالة الواسعة ... كان عضوَا العصابة جالسَين على الأرض، وقد بدا على وجهَيهما الرعب الشديد، وكانت الكلاب تنبح بشدة وتُحاول معاودة الهجوم لولا مدرِّبها الذي كان يمنعها.

أشار «تختخ» لرجلَي العصابة ليدخلا إلى الغرفة، فقاما مسرعَين ودخلا، ولم يكن هناك مخرجٌ من الغرفة إلا بابها، فأغلقه «تختخ» عليهما، أمَّا نوافذها فكانت مشبكةً بالقضبان.

تلفَّت «تختخ» حوله حتى وجد جهاز تليفون ... فأسرع يتصل بقصر البارونة التي ردَّت عليه فقال لها: أرجو أن تتصلي بالبوليس الآن ... قولي لهم إن في إمكانهم القبض على بعض أفراد عصابة «كلب البحر» على جزيرة «مورانو». فلْيُسرع رجال البوليس إلى هناك ...

صاحت البارونة: ماذا حدث لـ «لوزة»؟!

تختخ: لقد أطلقنا سراحها ... إنها معنا الآن ...

البارونة: دعها تتحدَّث معي!

تختخ: ليس الآن ... أعطيني «نوسة».

قالت «نوسة» بصوت مرتجف: هل وجدتم «لوزة»؟

تختخ: نعم، إنها معنا ... والآن عليكِ أن تُعدي حقائبنا كلها والحقي بنا على محطة السكة الحديد.

نوسة: هل نُسافر الآن؟

تختخ: نعم في أول قطار يغادر «فينسيا» ... فنحن لا ندري ماذا يحدث؛ فقد تكتشف العصابات أننا ضحكنا عليهما فيُطاردوننا معًا ... ومن الأفضل أن نُغادر «فينسيا» سريعًا!

قال «تختخ» لمدرِّب الكلاب وهو يشد على يده مشيرًا إلى الكلاب: «كوني ... مولتوبيني»، ثم قال للأصدقاء: «كوني» يعني كلب ... و«مولتوبيني» يعني عظيم.

قال «عاطف» مبتسمًا: أنت «مولتوبيني» جدًّا.

وضحك الأصدقاء لأول مرة في تلك الليلة ... والتفت «تختخ» إلى قائد الزورق قائلًا: «ستاسيوني سنترال!»

وأوضح للأصدقاء المعنى قائلًا: معناها ... محطة السكة الحديد الرئيسية.

وأسرع الجميع يُغادرون قصر «الكابيللو نيرو» الرهيب، وقفزوا إلى الزورق الذي انطلق بهم إلى محطة السكة الحديد.

ذهب «تختخ» إلى شباك التذاكر ... وعرف أنَّ هناك قطارًا يُغادر «فينسيا» بعد نصف ساعة متجهًا إلى «ميلانو»، فقطع التذاكر ... ووقف يتحدَّث إلى الأصدقاء في انتظار حضور البارونة و«نوسة» ... وبعد لحظاتٍ وصلتَا ... وأسرعت البارونة تحتضن «لوزة» ... وهي تبكي وتبتسم في نفس الوقت ... وصعد الجميع إلى القطار ... وأصرَّت البارونة أن تصعد معهم لوداعهم، وقالت لـ «تختخ»: لقد أبلغتُ البوليس ... وقد اهتمُّوا جدًّا بالحكاية كلها ... خاصةً أن الصندوق الذي تبحث عنه العصابة عند البوليس.

صاح «تختخ» في دهشة: صندوق «كلب البحر»؟!

البارونة: نعم ... لقد وجده قبطان السفينة ولم يستطِع قراءة العنوان؛ فقد سقطت عليه بعض المياه فأزالته. وفتح البوليس الصندوق ووجده ممتلئًا بالجواهر المسروقة من أماكن كثيرة ... وكمية من المخدرات ... وكان في انتظار حضور صاحب الصندوق للقبض عليه.

ابتسم «تختخ» ابتسامةً مرهقةً وهو يقول: كيف غاب عنَّا أن نسأل البوليس من أول يوم؟

عاطف: في هذه الحالة لم نكن نخوض هذه المغامرة الظريفة.

لوزة: مغامرة ظريفة لأنك لم تقَع في أيدي هذه العصابة المخيفة.

عاطف: حظي سيئ ... أو ربما لأن العصابة تخافني فمن المؤكَّد أنني كنتُ سأهزمها وحدي.

وضحك الأصدقاء مرةً أخرى ... ودقَّ جرس القطار، فقامت البارونة «شيليا» تُقبِّلهم جميعًا وتطلب منهم العودة لزيارتها مرةً أخرى.

ونزلت البارونة إلى الرصيف وأخرجت منديلها الأبيض تُلوِّح به مودِّعة ... وتحرَّك القطار ... ووقف الأصدقاء الخمسة في النافذة يُشيرون لها. وشيئًا فشيئًا غابت «شيليا» الطيبة عن أنظارهم ... وغاب منديلها الأبيض في الظلام.


هنداوي